العرب
الأحد 2021/11/07
السنة 44 العدد 12233

لاءات الخرطوم الجديدة.. لا تفاوض، لا مساومة، لا شراكة

القوى الثورية السودانية ترفع شعارات سياسية لا تستطيع الوفاء بها

رفض التفاوض يقود إلى طريق مسدود

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

تذكّرنا اللاءات التي رفعتها القوى الثورية في وجه قائد الجيش السوداني الجمعة "لا تفاوض، لا مساومة، لا شراكة"، بلاءات ثلاث أخرى رفعها القادة العرب في قمة الخرطوم الشهيرة عقب هزيمة يونيو 1967 وهي: لا صلح، لا اعتراف، لا تفاوض، مع إسرائيل، ومع الفارق بين الحدثين والزمنين، غير أن أصحاب الموقف الجديد كانوا مغرمين بفكرة اللاءات دون إدراك أن شعارها لا يتحقق على الأرض.

تبدو القوى الشبابية أثيرة لهذا النوع من الشعارات ومنفصلة عن الواقع وغير مدركة لحجم التطورات على الأرض في السودان، حيث تدور بالفعل برعاية أممية مفاوضات ومساومات وحديث عن شراكات بين المكونين المدني والعسكري، ما يخرج اللاءات الجديدة من قلب السياسة إلى هامشها، إذ تتم عملية دغدغة لمشاعر المواطنين وإنكار للتطورات الحقيقية.

يظهر خطاب القوى المدنية القائم على الرفض عموما للتعاون مع المؤسسة العسكرية حجم التناقضات داخل هياكلها، ويؤكد أنها ليست كتلة واحدة كما يتم تصويرها، ومن الخطأ تسويق أنها تملك بمفردها تقرير مصير الأزمة التي تعيشها البلاد، فالنظرة الفوقية والاستعلاء وعدم وجود مرونة كافية عوامل أدخلت السودان نفقا مجهولا.

تمثل القوى الثورية جناحا مهمّا في تحالف قوى الحرية والتغيير، غير أنها دخلت في خلافات مع أجنحة أخرى، ويعد البيان الذي أصدره تجمع المهنيين الجمعة بخصوص اللاءات كاشفا لعمق التباعد بين الأجنحة.

فقد انخرط رئيس الحكومة المدنية المعزولة عبدالله حمدوك في سلسلة من الحوارات بوساطات داخلية وإقليمية ودولية مع قائد الجيش الفريق أول عبدالفتاح البرهان، ولم يرفض التفاوض أو المساومة أو حتى العودة إلى الشراكة، فقط يريد الوصول إلى صيغة ترضي طموحاته وتطلعاته حيال تسوية الأزمة بما يحفظ ماء وجهه.

العقل السياسي من ينكر الآخر ويتعمّد نفيه، سواء أكان محسوبا على المكون المدني أو العسكري، لم يفهم طبيعة الأزمة ولا يعرف تفاصيل ما يدور في السودان، فقد استقر العقل السياسي الجمعي في الداخل والخارج على أهمية الشراكة بين الجانبين، وهي الصيغة العملية التي تمت الموافقة عليها عقب سقوط نظام عمر البشير، وجرى تضمينها في الوثيقة الدستورية لتدار بموجبها المرحلة الانتقالية.

تحتاج العودة إلى هذه الوثيقة وإبطال مفعول القرارات التي اتخذها البرهان وقادت إلى فرض حالة الطوارئ وحل مجلسي السيادة والوزراء، إلى حوار بناء وتفاوض كي تستعيد الشراكة زخمها لأن هذه النوعية من اللاءات المتشددة لن تضمن للسودان الأمن أو الاستقرار، ولن تعيد القوى المدنية بصورتها السابقة إلى الحكم.

> القوى الثورية التي رفعت لاءاتها تعلم أن قراءتها للأحداث غير دقيقة لأن إلغاء الفصل السياسي الجديد وعودته إلى الوراء عملية صعبة

ربما تكون المقاومة الثورية رفعت سقف رهانها كنوع من التمسك بثوابتها، وربما رفعت اللاءات للإيحاء بأنها قادرة على التحكم في مفاصل الأمور ولم تعد خارجها، وهكذا توجد العديد من الاستنتاجات الإيجابية التي يمكن الخروج بها من هذا الشعار، لكن ما لم تنتبه إليه القوى الثورية أنها فقدت الكثير من حضورها في الشارع، ومحاولة استعادة الدور الحيوي الذي لعبته عقب سقوط البشير مسألة غاية في الصعوبة.

تنبع الصعوبة من حجم التحول الحاصل في مزاج الشارع، فقد تشظى بطريقة مثيرة، ولم تعد القوى الثورية المحرك الوحيد له، فهناك قوى من داخل الجماعة المدنية تناهضها، وقوى أخرى منحازة للجيش، ناهيك عن اتساع قبضة المؤسسة الأمنية بفروعها المختلفة، والتي تمكنت من السيطرة على جزء معتبر في الشارع.

أدت النظرة الخيالية للأوضاع في السودان إلى الأزمة الراهنة، وقاد التضخم السياسي الذي طغى على القوى الثورية إلى دخولها في حلقات ضيقة يصعب الخروج منها بعيدا عن إعادة صياغة المشهد برمته لتحديد الأوزان النسبية بناء على التطورات الجديدة. فقد واتت القوى المدنية الفرصة لتثبيت نفوذها في الشارع ومؤسسات الدولة لكن لم تستثمرها جيدا، بما منح الجيش ذرائع كافية لتبرير إجراءات قائده.

تصعيد وارتياح كانا يكفيان القوى الثورية لأن تصطف في طابور قوى الحرية والتغيير وتعيد ترتيب أوضاعها وتتبنى خطابا واحدا وتتمكن من إعادة اللُحمة إلى جسم التحالف، وهي الوسيلة الوحيدة القادرة على تفويت الفرصة على رغبة الجيش فرض نفوذه على السلطة، أما أن تتشدّد في وقت تجري فيه مفاوضات جادة لعودة الشراكة فهذا تصعيد يشير إلى ارتياح للتآزم الحالي ما يشي بعدم الاستعداد للتوصل إلى تسوية منتجة.

تعلم القوى الثورية التي رفعت لاءاتها أن قراءتها للأحداث غير دقيقة لأن إلغاء الفصل السياسي الجديد وعودته إلى الوراء عملية صعبة، فهناك واقع جرى تدشينه بانقلاب الجنرال البرهان على القوى المدنية، وجميع القوى الدولية التي تمارس ضغوطا عليه لم تنف أهمية الرجل وشراكته ولم تتحدث عن إقصاء الجيش من المشهد العام.

وشبّهت دوائر مدنية لاءات القوى الثورية بمن يضع عصي الأزمة بين عجلاتها، في إشارة إلى من لا يريد الحل، حيث أفضى انقلاب البرهان إلى فرز مرجح أن تخرج بسببه العديد من القوى المدنية من مقدمة المشهد السياسي، وتخشى عناصر مؤثرة في القوى الثورية أن يطالها العزل ولا تجد طريقا سوى المزايدة وتفشيل الحل السياسي.

يعتقد البعض من الشباب في صفوف القوى الثورية أن رفع اللاءات الثلاث (لا تفاوض، لا مساومة، لا شراكة) سيكون كفيلا بوقف عملية الوساطة، أو توفير غطاء سياسي متشدد لرئيس الوزراء المعزول يمنحه قدرة للتنصل من الضغوط الخارجية.

في الحالتين لا يحمل الموقف العام من جانبهم مسؤولية سياسية بأنهم كانوا أحد الأسباب التي أفضت إلى الأزمة وتداعياتها، حيث ضاعفوا من قدرتهم على الحشد الكبير في الشارع، وبالغوا في تقدير قوتهم المعنوية في مواجهة الآلة العسكرية.

رغم ارتفاع مستوى التسييس في الخطاب الذي يصدّره الشباب في السودان، إلا أن الاختبارات كفيلة بكشف عناصر القوة والضعف فيه، ويكفي رفع اللاءات الثلاث ليؤكد أنهم بحاجة إلى مزيد من التدريب السياسي، ومعرفة توازنات القوى في الداخل، وحقيقة المعادلة الخارجية التي لا تزال حريصة على استمرار الجيش في السلطة.

وفي الوقت الذي رفعوا لاءاتهم جاءهم الجنرال البرهان بتوسيع نطاق قراراته، حيث شملت حل مجالس إدارات المؤسسات العامة، في رسالة تحدّ جديدة، وأن الرجل مصمم على عدم التراجع، وكان من الحكمة أن تستوجب القوى الثورية الإشارات المتتالية من الجيش، فمن يقبض على السلطة يستطيع تحريكها للوجهة التي يريدها.

وفرت تجارب الانقلابات العسكرية في السودان خبرة كبيرة للجنرالات مكنتهم من تغيير طريقة تعاملهم مع المعطيات السياسية، وهو ما كان على القوى الثورية الاستفادة منه قبل أن يجرفهم حماسهم إلى مسار اللاءات وهم غير قادرين على تنفيذها بل والعجز عن التمسك بها حتى النهاية.

كان عليهم الاستفادة من درس لاءات قمة الخرطوم قبل أكثر من نصف قرن، حيث انتهت إلى قيام عدد من الدول العربية بالصلح والاعتراف والتفاوض مع إسرائيل، فهل هدفت القوى الثورية للتوصل إلى نتيجة شبيهة بعد مرور سنوات طويلة؟

السيادة حسب الوصفة اللبنانية

إبراهيم الجبين
كاتب سوري

يصعب أن توقظ اللبناني على حقيقة أن جمهوريته الحالية كيان بني أساساً على فكرة تناقض معنى السيادة. قليلون يعرفون هذا يقودهم التشاؤم التاريخي، الغالبية لا تقبل حتى مجرّد التفكير في الأمر، فهذا سيعني مراجعة كاملة وشاملة لكل المفاهيم التي تأسّس عليها ما يعتبر اللبنانيون مآله اليوم باطلاً.

الدولة الطائفية، الكيان الديني والعزل الاجتماعي القائم على خطوط المذهب. هذه كانت من مفردات تشكّل الدولة اللبنانية منذ "لبنان الكبير".

انظر كيف؛ قبل شهرين من هذه اللحظة مرّت ذكرى تأسيس ما عرف باسم "دولة لبنان الكبير" على أنقاض متصرفية جبل لبنان، وعلى يد جنرال لم يكن لبنانياً مثل الرئيس ميشال عون، بل كان الجنرال غورو ذاته، قائد الغزو الفرنسي لبلاد الشام وصاحب القصة الشهيرة مع ضريح صلاح الدين الأيوبي "ها قد عُدنا يا صلاح الدين".

وأولئك الذين عادوا، بذهنية فتح صليبي، فقط أعلنوا "دولة" من جانب واحد. ووجدوا من يهلّل لهم ويوافق على قرارهم، بل ويقرّه في صلب الدستور في الثالث والعشرين من مايو 1926 محوّلاً إياه إلى جمهورية، جمهورية تأسست بقرار ضابط في الجيش الفرنسي.

قبل ذلك كانت متصرفية جبل لبنان حياً من أحياء سوريا، بيروت ميناء دمشق وحمص عمق طرابلس وهكذا. ولكن منذ أن أن تم ترفيع رتبة قرار غورو وجعله جمهورية والعواصف لا تهدأ داخل علبة كبريت حشرت فيها أكثر من 18 ديناً وطائفة وإثنية. ولم يسأل أحدٌ عن السيادة ومعناها آنذاك، فسيادة الجنرال كافية وزيادة.

لم يغادر وعي اللبنانيين ذلك المبدأ، حتى أنهم يعتقدون أن المنقذ دوماً يجب أن يكون عسكريا، وربما كان وصولهم إلى خيارات الحرب الأهلية وإقناع الآخر بقوة السلاح بالعيش المشترك برهاناً ساطعاً على انعدام أي وسيلة ممكنة أخرى.

ولعله فراغ جعبة لديهم، ذاك الذي قادهم أكثر من مرة إلى سيادة تجلبها "الموثوقية"، تلك البدعة الاجتماعية فوق الدستورية التي فتحت الباب واسعاً أمام هدم الدولة وتسليمها لاحقاً للثنائي الشيعي الذي يقود أحد ركنيه عرّاب الموثوقية ومروّجها الأكبر نبيه بري زعيم حركة أمل والذي أوصله اتفاق الطائف إلى منصب رئيس مجلس النواب.

ماذا تعني السيادة عبر الموثوقية؟ تعني أن كل شيء ممكن إذا تم التوافق عليه بكلمة الشرف، حتى لو كان مخالفاً للقانون. هكذا مرّر بقاء حزب الله مسلحاً بعد نزع سلاح أمراء الحرب وملوك الطوائف، وهكذا مرّر انتقال حزب الله من حركة مقاومة إلى ميليشيا عابرة للحدود ذات دور إقليمي يشتكي وزير الخارجية اللبناني عبدالله بوحبيب من أن السيطرة عليه خارج قدرة الحكومة اللبنانية، مناشداً العرب ألا يحملوا تلك الحكومة أكثر مما تستطيع.

وفي الوقت ذاته يتحدث بعض اللبنانيين عن أن الاعتراض السعودي على تصريحات جورج قرداحي وزير الإعلام المسيّس، وبعده بوحبيب ذاته وزير الخارجية المسيّس، تمسّ سيادة لبنان. أين هي الموثوقية وأين هي السيادة في معادلات الساسة اللبنانيين اليوم؟ فقاعات لا قيمة لها.

ما معنى السيادة اللبنانية في ظل تسيّد حرفي مثير للسخرية لرجل دين يتبع مرجعاً يعيش على بعد آلاف الكيلومترات على مسار لبنان ولقمة عيش الملايين من المواطنين فيه؟ ما معنى السيادة في إطلاق يد هذا "السيّد" في رعاية تجارة المخدرات والقبول بمكانته المذهبية في الوقت ذاته؟

ما معنى السيادة في التأقلم مع احتقار هذا "السيّد" لقرارات المحكمة الدولية وحماية قتلة رئيس الوزراء الراحل رفيق الحريري؟ ما معنى السيادة في السماح لهذا "السيّد" الذي بات هو الآخر جنرالاً بعمامة لا ببزة عسكرية، باختراق الحدود وارتكاب المجازر بحق السوريين الأبرياء واحتلال مدنهم وقراهم وتهجير النساء والأطفال وتطبيق برنامج تغيير ديموغرافي ممنهج يشوّه وجه سوريا؟

قبل أكثر من عام ونصف العام، وفي ظل انهيار الأوضاع الاقتصادية اللبنانية، رفض حزب الله تدخل صندوق النقد الدولي حفاظاً على "السيادة"، كما رفض وزير الصحة اللبناني الذي كان حينها يتبع حزب الله، للمصادقة الساخرة، وفي ذروة انتشار وباء كوفيد – 19 إيقاف الرحلات الجوية ما بين طهران وبيروت، كما طلبت منظمة الصحة العالمية، خشية انتقال العدوى، وقال وزير حزب الله حينها أيضاً إن ذلك يعتبر تدخلاً في "السيادة" اللبنانية، ما فاقم الأوضاع المرضية في لبنان حدّ انهيار النظام الصحي كله، بينما لم تكن ناقلات مازوت إيران التي استقدمها "السيّد" رغماً عن العقوبات الدولية المفروضة على إيران ازدراء للسيادة.

ملّ العالم العربي من تحمّل الوصفة اللبنانية للسيادة بصيغتها الحالية، والهجوم اليومي على العرب، حتى أن النائب محمد رعد رئيس كتلة الوفاء للمقاومة أي لحزب الله، لم يخجل من القول "هل استفقنا على عروبتنا؟"، وكأنهم كانوا في طمأنينة إلى أن عروبة لبنان وشعبه باتت في حكم الميتة.

> لعله فراغ جعبة لديهم ذاك الذي قادهم إلى سيادة تجلبها «الموثوقية»، تلك البدعة الاجتماعية فوق الدستورية التي فتحت الباب واسعاً أمام هدم الدولة وتسليمها للثنائي الشيعي الذي يقود أحد ركنيه عرّاب الموثوقية ومروّجها الأكبر نبيه بري

غير أن أبلغ الردود التي قيلت له ذاك الذي كتبه النائب فارس سعيد والذي قال لرعد "ترجمنا للعرب من الإغريقي واللاتيني وأسّسنا أوّل مكتبة عربيّة وناضلنا للعروبة في وجه التتريك، وها نحن نحمل أمانة العروبة ضد التفريس. أنتم تعيشون في الماضي وتحقدون. نحن بالعكس أبناء رجاء".

يعتقد حزب الله أنه بتبعيته الولائية للمرشد الإيراني، والتي هي أبعد ما تكون عن السيادة وحرية الاختيار، وبشحنات الكبتاغون التي يريد إغراق الخليج العربي بها، وبما يرتكبه من جرائم في سوريا واليمن، إنما يستطيع مواصلة خداع جماهير عربية تعيش في القبور، ربما لأن العقل الذي يدير الحزب والمشروع الإيراني كله هو عقل قبوري لا يمكنه أن يرى الآخر إلا في مناخ مشابه. إلا أن هذا واحد من أكبر أخطاء حزب الله، إيران لن تخسر، فهي في البعيد، بينما شريحة لا بأس بها من اللبنانيين سيجدون أنفسهم ذات يوم معلّقين في الطائرات الإيرانية التي تفرّ من لبنان، يتساقطون مها كما تساقط الأفغان من الطائرات الأميركية.

ومن ظلام إلى ظلام، ومن جديد، لا يجد اللبنانيون من مخرج أفضل من البحث عن سيادة مستوردة يحدثها انقلاب عسكري، أو تدخّل فرنسي أو معجزة يجترحها البطريرك الماروني في بكركي. البطريرك ذاته الذي يخلط الأمور ببعضها بعضاً بين الأسبوع والآخر، فيطالب بطرد اللاجئين السوريين "السنّة" ملوحاً بحرب دينية، متماهياً مع خطاب جبران باسيل المصطبغ بالطائفية، وفي أيام أخرى تميله الريح نحو سمير جعجع رافضاً النيل من مكانة الموارنة، قبل أن ينثني نحو سليمان فرنجية ويحتضن قرداحي حامياً موقفه حتى النهاية.

متصرفية بفرمان تركي صارت دولة بفرمان آخر فرنسي، من الصعب أن تستمر من دون فرمانات أجنبية جديدة، إيرانية أو سعودية أو غيرها، إلا إذا تخلّصت من عللها الطائفية وأعادت تركيب ذاتها، وطناً نهائياً لمواطنين متساويي الحقوق، لا متحاصصين على جثّة تكاد تكون هامدة هذه الأيام.